كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ
رئيس جامِعة القِدّيس يوسف في بيروت في فعاليّة كتاب "الحقيبة"
للبروفسور إفرام البعلبكي يوم 2023/10/27 – معهد الآداب الشرقيّة

شكرًا لكم جميعًا. أحبّاء وأصدقاء، أتيتم من أجل إفرام وحقيبته، شكرًا للأسرة الكريمة: ليلى، اليسار، غسان، ورندلا، شكرًا معهد الآداب الشرقيّة بشخص مديره وبشخص الدكتورة نادين عبّاس، بفضلكم ها هي الحقيبة نحملها بين أيدينا ثمينة ومليئة بالفكر المعطاء.
إنّها الحقيبة،
إنّها حقيبة الرحلة الطويلة، المليئة بالحضور المتميّز، والكلمة المستنيرة، إنّها رحلة السنوات الخمس والثمانين، إنّها رحلة لا يقوم بها إلاّ الكبار، من قامة البروفسور إفرام البعلبكي.

إفرام البعلبكي كان دومًا في حالة سَفَر. سَفَر الفكر، سفر الحبّ، سَفَر الحريّة من حالة إلى حالة ومن معنى إلى آخر، ومن مفهوم إلى قضيّة، ومن أعلى إلى أعلى، ومن بحث إلى قراءة والسَفَر لا ينتهي. لا نهايةَ له إذ أنّ صاحبَنا ومعلّمَنا تركَ لنا بين أيدينا وأيدي الأسرة، حقيبتَه ذات المباحث السبعة عَشَر لكي نستمرّ نحن أيضًا أُمناء على الفِكر الإفراميّ وعلى التفكير والبحث والتدقيق في مهمّات تاريخ الفكر البشريّ في يونانيّته وعروبته وإسلاميّته وحتّى بعده النقديّ، خصوصًا المُعاصر منه.

نفتح الحقيبة لنجِد مقدّمة من صفحات عديدة، واضحٌ أنّ الكاتب الفيلسوف والمؤرّخ المراجع للفلسفة أخذَ وقتَه في كتابتها إذ كرَّسَ جزءًا واسعًا منها لتأسيسٍ منهجيّ لتلك المباحث السبعةَ عشر، وقد خصَّص لكلّ مبحثٍ قضيّةً أو موضوعًا أو لمعَةً من المفكّرين القدماء أو المعاصرين. وما لفتني في مقدّمة الحقيبة تلك الجملة التي صاغها الدكتور إفرام ليقول تواضعه ومحدوديّة ما جاء به حيث يقول مخاطبًا قارئَه: "إذًا لن تَجِد (في الحقيبة) عِلمًا ولا نبوءة ولا تنزيلًا فيما ستقرؤه على هذه الصفحات. لن أوثّق إلاّ نادرًا، فقد وثّقتُ بما فيه الكفاية في أحاديثي الجامعيّة، لأربعين سنة، وقوائم المصادر والمراجع أصبحت كثرة كثيرة على دفاتر طلاّبي، وفي رسائلهم وأطاريحهم المتعدّدة التي أشرَفتُ عليها، أو شاركتُ في قراءتها ومناقشتها، وهي بالمئات. لن أوثّق إلاّ نادرًا، فقد سئمتُ، لكنّي أعدُكَ أن أكونَ أمينًا إلى أقصى قدرتي في مقاربتي النصوص الأدبيّة والفلسفيّة التي سأتفرّجُ بها " (ص15).

ولا يتردّد البروفسور إفرام في القول بأنّه "سيقرأ، وعلى طريقتهِ، وسيتشكّك كثيرون، وسيعترض كثيرون، وعندما أمرّ بجانب الأساطير القديمة لديهم وأسخر بها، سينتفضون. ولكنّني لن أكون حاضرًا. أعدكم بأنّي سأحترم الجميع، الأقدمين والأقرب إلينا حتّى الأقربين".

في هذه الحقيبة التي حملها الكاتب إلينا وهو "راجع من إحدى وثمانين سنة" كما يقول (ص16)، وهي حقيبة لا صندوق مجوهرات، قراءات خاصّة أو معروفة، أحيانًا للصفحات والمواضيع التي تناولها الفِكر البشريّ من القِدَم حتّى اليوم. في المبحث الأوّل، قراءة في تاريخ الفِكر العربيّ، فيقول لنا البروفسور البعلبكي، انّ ازدهار الترجمة والحركة الفكريّة أيّام بني العبّاس كان يكمن في تعطّش العَرَب المسلمين إلى المعرفة وتشجيع الدين على ذلك، والحاجة إلى العلوم من أجل تنظيم الدولة. والترجمة لم تكن مجرّد هواية بل إنّها كانت وظيفة رسميّة ترعاها الدولة، والترجمة هي موقف من الحضارة، حيث أنّ الهدف منها هو التلاقي الثقافيّ والعلميّ والأدبيّ والاستفادة منها لمعرفة المخزون الفكريّ العالميّ. ومن الأحكام التي يقدّمها الكاتب في الحقيبة، تلك التي تتناول التوفيقيّة ما بين مسلّمات الدين الغيبيّة وحريّة الفكر النقديّ كما مارسه عديدون مثل الكنديّ والفارابي وعلى الأخصّ الوليد ابن رشد الذي قال فيها الكلمة الفصل وهي لا زالت قائمة حتّى اليوم، وهي كما يقول الدكتور البعلبكي، نشاطٌ فكريّ فاشل سواْ أكان صادقًا أم نفاق تقيّة، فعندما تقول في الأديان الإبراهيميّة إنّ آدم هو أبو البشريّة كلّها، وتُفرَض عليَّ أسطورة الخَلق في سِفر التكوين في كتاب اليهود ويتبنّاها المسيحيّون والمسلمون، بينما ثبّت العقل العلميّ عكس ذلك فأين نجد مكانًا لهذه التوفيقيّة؟ إلاّ أنّ للعقلِ مكانة كبيرة وقد تحوّل إلى صناعة يشتغل بها الكثيرون وازدهرت الحضارة والثقافة، إلاّ بما يخصّ الفساد وقلّة الأخلاق والبشاعة السلوكيّة، فلم يكن ينقصهم أي شيء يُذكَر.

عن الحقبة الأندلسيّة، يثمّن الدكتور البعلبكي الاعتدال الذي اتّصف به الفكر الفلسفيّ والعِلميّ، في حين أنّ تشدّد العلماء المسلمين الذين قالوا إنّه لا يجوز للمسلم أن يخضع لغير المسلم لا في السياسة ولا في القضاء ولا في إيّ إدارة، دفَعَ الموظّفين المسيحيّين إلى إشهار إسلامهم، وهكذا نشأت طريقة جديدة أطلق عليها اسم المسلمانيّين. وعصر الانحطاط له صفته حيث يشير البعلبكي إلى أنَّ سِمَة الفكر في ذلك الزمن كان تجميعيًّا موسوعيًّا، والظروف الأمنيّة والبلبلة السياسيّة لم تسمح لهم بالإنتاج الجديد. أمّا عصر النهضة، فإنّه اتّسمَ بالصراع بين القديم والحديث اجتماعيًّا وفكريًّا وأدبيًّا. وتختصر الحقيبة ذلك العصر التحديث النهضوي ببعض الكلمات حيث يصفه بأنّه فكرٌ بدون هويّة، فيه كلّ شيء وليس فيه شيء محدّد من ابتكار حيث كان متأثّرًا التأثّر الشديد بمقولات الغرب. فأنت تجد الظهوريّة من دون نظام فكريّ ظهوريّ متكامل، وتجد الوجوديّة من دون أي نظامٍ فكريّ وجوديّ وفيه نشوئيّة من دون أي أبحاث نشوئيّة علميّة، وقوميّة من دون عمق قوميّ مساند، وحلوليّة لا تنزل إلى أعمق من قصيدة أو قصّة من قصص الخوارق. وأيضًا

ما يتّسم به الفكر العربيّ المعاصر هو تلك الثنائيّة الجدليّة ما بين العقل والدين والتيوقراطيّة والديموقراطيّة والمثاليّة والماديّة والتراث والمعاصرة والتغريب والأصالة، وبمجمل القول فإنّه فكرٌ مُصاب بالتعطيل.

ونعرّج مع صاحب الحقيبة على قضيّة تناولها الكبار من المفكّرين ومؤرّخي الفلسفة تحت مسمّى سقراط: إعرف نفسك. لا يماري في حكمه على السفسطائية، ذات الفكر السياسيّ المسطّح، وكثيرون من سياسيّينا هم من أهل السطح، سلوكهم سلوكٌ تشوّفيّ وصوليّ بإمتياز، يعتقدون أن لا شيء ثابت، وبالتالي فإنّ الانتهازيّة هي الأداة السائدة. أمّا سقراط فهو يعطي الحواس حقّها في عمليّة المعرفة، إلّا أنّ دورها ليس أكثر من وسيلة للتذكّر، وعندما أتذكّر، لن أعود بحاجةٍ إليها لأنّ العقل هو الذي يصبح سيّد المكان والزمان، فهو يُظهر خداع الحواس ويصحّح أخطاءها ويساعدها عل المعرفة بصدق ويميّز بين الخير والشرّ ويحدّد قواعد السلوك ويبعد الإنسان عن السفسطائية بحيث يدفعه إلى الدخول في عمليّة "إعرف نفسك".

وعندما يتوسّع صاحبنا في بحثه حول الكون في الفلسفة اليونانيّة والعربيّة القديمة، فهو يضع نفسه بشكلٍ قويّ في خط ابن خلدون الذي اعتمد الملاحظة للحديث عن الكون فأبطل الفلسفة وتصوّراتها كما وصلته من زمن أرسطو مرورًا بالفلاسفة العرب فيعجز العقل عن إدراك ما هو وراء المادّة، بل الأهمّ هو تراتب الموجودات عبر نشوئيّتها. فالفلاسفة عبر تصوّراتهم يسخرون منّي، يقول الدكتور البعلبكي صراحةً، حيث أضاعوا وقتهم في استدراج ما ليس تطاوله الحواس. والموقف نفسه يتّخذه الدكتور البعلبكي حيال موضوع النفس، فيؤكّد أن ما يراه أرسطو بأنّ العقل هو جزء من النفس صحيح، في حين أنّ موقف متكلّمي وبعض فلاسفة المسلمين بأنّ العقل هو خارج عن النفس هو موقف خارج عن المنطق بحيث أنّ ما قاله ابن سينا حول النفس التي هي كمال الجسد هو موقف حميد يتوافق مع موقف أرسطو الذي قال إنّ النفس ليست صورة وحسب بل هي كمال أوّل للجسد الطبيعيّ.

وإذا حدّثتنا الحقيبة عن التصوّف، فلأنّها تريد أن تضعنا في حيرة من أمر هذه الظاهرة التي يصفها علماء النفس بالهلوسة وبالتعويض عن الاحتقان والضغط النفسيّ، وهو ينتقل للحديث عن النفس عند أفلاطون وأرسطو وابن سينا، حيث أنّ الأخير كمّل ما فرغ إليه أرسطو حول العقل الفعّال، فيجد في النفس قوى العقل الفاعلة وقوى العقل العالمة، إلاّ أنّه تردّد في القول إنّه يحترم ابن سينا إلاّ أنّه يشكّك في قيمة ما كتب، حيث أنّ المهمّ ما كان كُتِبَ سابقًا.

لن أطيل الكلام حول المفاهيم التي تناولها صاحب الحقيبة في كتابه، فهو يرى محدوديّة الفكر العربيّ القديم والحديث كما رأينا، لأنّه غارقٌ في الثنائيّة والجدليّة التي لا تجد بابًا مفتوحًا يعطيها الفكر المجال

الواسع، لاختصار الثنائيّات وتوثيقها في مقولة واحدة صريحة المعنى. ملاحظتي حول قراءات إفرام البعلبكي تكمن في التالي:

أوّلًا: لا يعطي الدكتور إفرام القيمة لما نستطيع تسميته الفكر الرمزيّ والدلالات الذي هو جزء لا يتجزّأ من طريقة علاقة الإنسان بمجتمعه وواقعه اليوميّ وعلاقاته أيضًا وكذلك بالمُطلَق وتصوّراتِهِ في الدين والألوهة والمقدَّس بشكلٍ عامّ. وبالتالي فإنّ عَمَلَ الفِكر، كما نعرفه منذ عصر الأنوار، يكمنُ ولَو جزئيًّا في تغيير الرمزيّات والصّوَر والنصوص للوصول إلى المَعاني الأساسيّة التي يريدها الإنسان من أجل الحُبّ والحريّة.

ثانيًا: يُشدّدُ إفرام البعلبكي على أنّ الفكر الفلسفيّ هو فكرٌ عليه التوسّع ورؤية المجتمع والعالم والإنسان في تعدّديّته وإدخال هذه القضايا في إدراك الإنسانيّة، وفي هذا الباب، يشدّدُ البعلبكي على رسالة التربية والتعليم كما نراهُ عند الأقدمين والمعاصرين وأهل الحداثة.

مِن هنا تبدو الحقيبة مجالًا واسعًا للتعرّف إلى قضايا الفِكر القَديم والحديث بصورةٍ شاملة وواقعيّة. إلاّ أنّها بالتالي تفتح الباب على إكمال الرحلة والسفر لاستنباط ما هو حديث من خصائص الفِكر ومحاولاتِه في الإجابة على قضايا أكثر معاصَرَة تُطرَح على إنسان اليَوم في مجتمعاتِنا العربيّة والمشرقيّة عامّةً.

طيّب الحبيب المعشوق ثراك يا عاشق الفكر والكلمة وجعل الحقيبة حقيبتك زادًا للكثيرين من طلاّب العِلم والمعارِف وحبّ النَقد، والشكّ واليقين، ولتكن هذه الحقيبة مِعيارًا لصناعة الأفكار والبراهين في عِشقِها وتلازمها للواقع في ديناميّته وحركيّته المستَدامَة والسائرة نحو التلاقي في المحبّة.

عِشتَ بيننا إفرام البعلبكي منارةً للحبّ والمعرفة والعطاء.